أوضاع وسط الجزيرة العربية قبيل ظهور الحركة الوهابية

د/ عزيزة غنام•

- **مقدمة:**

حينما تمكنت الدولة العثمانية من الاستيلاء على مصر سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، دخلت الحجاز تحت نفوذها بمحض اختيار أشرافها . ثم استولت هذه الدولة على اليمن سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م وعلى الإحساء حوالى سنة ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م . ومن هنا أصبحت نجد ، المكونة لوسط الجزيرة العربية ، محاطة بمناطق نفوذ عثمانية من أغلب جهاتها . وقد شجع هذا الوضع أشراف الحجاز على القيام بغزوات لبعض البلدان النجدية . لكن نفوذ الدولة العثمانية فى جزيرة العرب ضعف كثيرًا بعد حوالى قرن من بداية وجوده . فقد استطاع أئمة اليمن أن يستقلوا بحكم بلادهم سنة ١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م ، وتمكن زعماء بنى خالد من الاستيلاء على حكم الأحساء عام ١٠٨٠هـ / ١٦٧٠م . وكان لهذا التغير أثره بالنسبة لعلاقات نجد بالقوى المحيطة بها . ذلك أن زعماء بنى خالد بدأوا يقومون بغزوات لبعض جهاتها بينما أخذت غزوات أشراف الحجاز لها تقل كثيرًا لتلاشى الوجود العثمانى المؤيد لهم فى الجزيرة العربية ، لدرجة أن المصادر لا تشير إلا إلى غزوة واحدة لهؤلاء الأشراف على نجد خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى كله .

وعلى أية حال فإن نجدًا لم تشهد نفوذًا عثمانيًا مباشرًا عليها قبل ظهور الحركة الوهابية ، كما أنها لم تشهد نفوذًا يفرض سيطرته على العلاقات بين قبائلها وبلدانها المختلفة لأية جهة .

•مصر.

- أقسام المجتمع النجدى :

وكان المجتمع النجدى ينقسم إلى قسمين : بادية وحاضرة . لكن البادية كانت ، على الأرجح ، أكثر عددًا من الحاضرة . وكانت الحياة الاقتصادية للقبائل الرحل تقوم على الثروة الحيوانية ومنتجاتها بدرجة أولى ، وعلى ما تغنمه فى الغزوات بدرجة ثانية . وكانت هذه الحياة تتأرجح بين القوة والضعف ، حسب ظروف المناخ ومفاجآت الغزوات ونتائجها . فنزول الأمطار ، بما ينتج عنه من نبات الربيع ، ينمى الثروة الحيوانية ويضاعف إنتاجها . لكن عدم نزوله بسبب كوارث اقتصادية ويؤدى أحيانًا إلى هجرات وحروب[١] . ومن المعروف أن الغزوات ليست دائمًا ناجحة ، كما أن من غزا الآخرين اليوم قد يغرى غدًا ، ومن نال بعض الغنى بالغزوات قد يعانى كثيرًا من الفقر بسببها .

- الحياة الاقتصادية فى نجد :

وكانت الحياة الاقتصادية للسكان المستقرين فى نجد تعتمد على الزراعة بصفة رئيسية، وعلى التجارة بصفة ثانوية . وكانت للزراعة مشكلاتها الخاصة . ومنها ما كان يعود إلى مناخ المنطقة والعوامل الطبيعية فيها كجفاف مياه الآبار ، أحيانًا ، فى بعض الأقاليم ، وتعرض المزروعات للبرد والرياح الشديدة وهجمات الجراد[٢] . ومنها ما كان يعود إلى أعمال الخصوم كتخريب المحاصيل وقطع أشجار النخيل أو نهب ثمارها[٣] . وكان جفاف مياه الآبار من أسباب نزوح السكان إلى أقطار مجاورة[٤] . وكما كانت للزراعة مشكلاتها الخاصة كانت للتجارة مشكلتها الأمنية المتمثلة فى تعرض القائمين بها ، أحيانًا ، للنهب[٥] .

ولقد كان إنتاج نجد من الثروة الحيوانية ، خاصة الإبل ، أكثر من احتياجات سكانها ، ولذا كانت تصدر قسمًا من هذه الثروة إلى الأقطار العربية المجاورة لها[٦] . لكن إنتاجها من الزراعة كان أحيانًا لا يفى باحتياجات أولئك السكان . ومن هنا يستوردون أطعمة من بعض الأقطار . وكان الأحساء بالذات من الأقطار المهمة جدًا بالنسبة لهم؛ إذ كانت من أماكن استيرادهم للأطعمة ، وكانت من الأماكن التى ينزحون إليها وقت

---

[١] محمد الفاخرى ، *الأخبار النجدية* ، تحقيق عبد الله الشبل ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٩٨٠ ، صـــ٩٨ .

[٢] عثمان بن بشر ، *عنوان المجد فى تاريخ نجد* ، الطبعة الثانية من قبل وزارة المعارف السعودية، ١٩٧١ ، جـ٢ ، صـــ ٢٣٠ ، ٢٣٥ .

[٣] *المصدر نفسه* ، جـ٢ ، صـــ٢٣٨ .

[٤] الفاخرى ، *المصدر السابق* ، صـــ٩٨ .

[٥] ابن بشر ، *المصدر السابق* ، جـ٢ ، صـــ ٢٠٩ .

[6] Burckhardt , *Notes on the Bedouins and Wahabys* , London , 1831 , vol. II ; وكانت نجد تسمى "أم البل" لكثرة الإبل فيها وقد ظلت غنية بها مصدرة لها حتى وقت غير بعيد من الزمن الحاضر .

الشدة ، كما كانت موانئها منافذ لهم لاستيراد ما كانوا يحتاجون إليه من منتجات البلدان الخارجية[٧] .

- الأحوال السياسية فى نجد :

وكان أمراء البلدان النجدية يصلون إلى الإمارة ، أحيانًا ، بطريقة وراثية سلمية . لكنهم ، أحيانًا أخرى ، لا يصلون إليها إلا بالاغتيال أو القوة . أما رؤساء القبائل الرحل فكانوا يصلون إلى الرئاسة حسب مؤهلات قيادية خاصة ، كالكرم والشجاعة وسداد الرأى . وكان قرب الفرد نسبًا من الرئيس القديم من عوامل ترجيح زعامته ، لكن تأثير ذلك لم يكن مثل تأثيره لدى الحاضرة .

أما علاقة الحضرى بأميره فكانت مختلفة عن علاقة البدوى برئيسه لعاملين : أحدهما اختلاف طريقة الوصول إلى الزعامة ، والثانى اختلاف طبيعة الثروة لدى كل منهما. كان الخوف من الثأر عند أمراء البلدان الذين وصلوا إلى الإمارة بالقوة أو بالاغتيال يؤدى إلى اتخاذ إجراءات تعسفية أحيانًا . وكانت قلة المصادر الاقتصادية لدى بعض الأمراء ، مع وجود متطلبات الضيافة والدفاع ، مما يحتم القيام بإجراءات اقتصادية جائرة فى نظر كثير من سكان إمارته . ولأن ثروة الحضرى عادة ، غير قابلة للنقل ، كالسكن والمتجر والمزرعة ، فقد كان عليه أن يصبر على بعض الجور ، إذ أن محاولة الهرب منه قد تفقده كثيرًا من ممتلكاته ولهذا فإن المصادر كثيرًا ما وصفت أمراء نجد فى تلك الفترة بالظلم والجور[٨]. لكن رئيس القبيلة المختار للزعامة حسب مؤهلاته القيادية كان يحرص على أن تظل الثقة به موجودة فى النفوس . فكان لابد له من تحسين علاقته بأتباعه . وكانت ثروة البدوى قابلة للنقل ، با إن حياته ذاتها حياة تنقل وترحال . وعلى هذا فإنه متى ما أحس بنوع من الجور فما عليه إلا أن يطوى خيمته ويسوق حيواناته ويرحل ، دون أن يعرض ثروته لضرر كبير. وكان من السهل عليه دائمًا أن يجد ترحيبًا لدى قبيلة أخرى . وهذا ما أدركه كل من الرئيس والمرؤوس وكيف علاقته بموجبه .

ولقد كان لعدم وجود سلطة مركزية مسيطرة على شؤون نجد قروًنا عديدة، وللظروف الاقتصادية الخاصة بها ، أثر واضح فى نفوس سكانها بادية وحاضرة . فقد رسخت فيهم النزعة الاستقلالية المتمسكة بكيانات صغيرة ، وتعمق لديهم الشعور السلبى تجاه الاندماج فى كيان موحد يستظلون بظله . ولعل مما يوضح ذلك أن المحاولات التى قامت بها الحركة الوهابية لصهر هذه الكيانات فى بوتقة دولة واحدة استغرقت أكثر من أربعين سنة .

هكذا كانت نجد مكونة من قبائل رحل مختلفة الأحجام والنفوذ ، ومن إمارات مدن صغيرة الحجم كثيرة العدد . وكان النزاع بين قبيلة وقبيلة ، والخلاف بين إمارة

---

(7) Abu Hakima , *History of Eastern Arabia (1750 – 1800)* , Beirut , 1965 , p. 144 .

(٨) ابن بشر ، *المصدر السابق* ، جـ١ ، صـ ٢٠ ؛ عبد الله الحاتم ، *خيار ما يلتقط من الشعر النبط* ، الطبعة الثانية ، دمشق ، ١٩٦٧ ، جـ١ ، صـ١٠٤ .

وأخرى من الأمور المألوفة فى حياة الفريقين : البدوى والحضرى على حد سواء . ومع أن تلك القبائل والإمارات كانت تختلف قوة وضعفًا فلم تكن هناك قبيلة أو إمارة بلغت من القوة درجة تجعل بقية القبائل أو الإمارات لا تستطيع تحديها بطريقة من الطرق . ومن هنا كان هناك نوع من التوازن العسكرى الداخلى فى المنطقة .

- أهم الإمارات النجدية :

وكان من بين الإمارات المشار إليها إمارتان على علاقة وثيقة بالحركة الوهابية ، فيما بعد ، وهما إمارة آل معمر فى العيينة وإمارة آل سعود فى الدرعية . وكانت الأولى قد أيدت تلك الحركة حتى دخلت مرحلة تطبيق مبادئها ، ثم حدث ما جعلها ترتبط بالثانية حتى بلغت ما بلغته من نجاح . ولعله من الصدف الغريبة أن تاريخ الإمارتين فى بلدتيهما قد بدأ بسنة واحدة ، وهى سنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م وقد مرت كلتا الإمارتين ، كما مرت بقية الإمارات النجدية ، بفترات نزاع أسرى داخلى وفترات ضعف وقوة . ولكن إمارة آل معمر كان أقوى إمارة نجدية من الناحيتين العسكرية والاقتصادية . وقد بلغت أوج عظمتها فى عهد أميرها عبد الله بن معمر ، الذى حكم ثلاثة وأربعين عامًا وتوفى سنة ١١٣٨هـ / ١٧٢٥م [٩]. ولعل من أسباب قوة علاقتها الخاصة بزعماء بنى خالد حكام الأحساء[١٠] .

- الأحوال الثقافية والتعليم فى نجد :

وكان التعليم فى نجد محصورًا بالنسبة لعدد المتعلمين وبالنسبة للمواد المتعلمة . فقد كان معدومًا لدى البادية ، وكان قليلاً جدًا لدى الحاضرة . ذلك أن انشغال الناس بالبحث عن لقمة العيش وعدم وجود من يتولى التعليم برعاية مالية كانا من الأمور التى حالت بين الغالبية العظمى من السكان وبين التعليم . وكان التعليم الموجود محصورًا فى العلوم الشرعية ؛ خاصة الفقه الحنبلى ، وكان المذهب الحنبلى هو السائد فى نجد منذ القرن الرابع عشر الميلادى . ولم يكن غريبًا أن يجد هذا المذهب أرضًا خصبة فى هذه المنطقة . فهو أقرب المذاهب السنية الأربعة إلى ظاهر نصوص القرآن والحديث ، وهو بهذه الصفة يمثل البساطة إلى حد ما . وكانت البساطة من الأمور المحببة لدى الفرد النجدى ، الذى كان أقل إخوانه من عرب الجزيرة العربية تأثرًا بالخارج . ولقد عانى أئمة هذا المذهب ، كأحمد بن حنبل وابن تيمية ، الشيء الكثير فى سبيل ما كانوا يؤمنون به. وفى ذلك ما فيه من بطولة . وكان إعجاب النجديين بالبطولات أمرًا واضحًا .

وكان تركيز التعليم على مادة الفقه منسجمًا مع الهدف من التعلم حينذاك ، وهو التأهيل للقضاء . وكان هناك اكتفاء ذاتى فى هذا المجال . ذلك أن أكثر البلدان النجدية كان ها قضاتها . وكان أكثر أولئك القضاة يتحلون بالنزاهة . ولذا كانوا موضع تقدير

---

[٩] ابن بشر ، *المصدر السابق* ، جـ٢ ، صـ ٢١٦ ، ٢٣٦ .

[١٠] *المصدر نفسه* ، جـ٢ ، صـ ٢٣١ ؛ وكان لهذه العلاقة أثرها فيما بعد على مسيرة الحركة الوهابية .

المجتمع .لكن قليلاً منهم لم يكونوا يتحلون بما كانت تتحلى به الأكثرية ، فكانوا محل نقد اجتماعي لاذع ، عبر عنه كل من حميدان الشويعر وجبر بن سيار فى شعرهما[١١] . ومن الواضح أن القضاء الشرعى كان خاصًا بحاضرة نجد . أما باديتها فكانت تتحاكم فى مشاكلها إلى العرف والتقاليد الخاصة بقبائلها .

- الحالة الدينية فى نجد قبل الحركة الوهابية :

أما الحالة الدينية فى نجد قبل الحركة الوهابية لم تكن مشرقة على الإطلاق . فمع أن أهل الحاضرة كانوا يقومون بواجباتهم الدينية كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، فإن أكثر أهل البادية لم يكونوا يقومون بهذه الواجبات[١٢] . وكان هناك جهلة من هؤلاء وأولئك يمارسون أعمالاً شركية ويؤمنون بخرافات لا تتفق مع العقيدة الإسلامية[١٣] .

وهكذا كانت نجد فى حاجة إلى قيام حركة إصلاح تنشر المعرفة بالدين ، وتحفز الناس على القيام بواجباتهم ، وتقضى على ما علق به من خرافات وبدع وممارسات لا تتفق مع تعاليمه ، كما تقوم بتوحيد القبائل والإمارات ، التى كانت علاقاتها عدائية، بصفة عامة ، فى دولة واحدة يتحقق من خلالها الأمن والقوة .

وكانت نجد ، بظروفها الخاصة ، أنسب مكان لقيام مثل تلك الحركة ونجاحها . ذلك أن اعتناق حاضرتها للمذهب الحنبلى ، وعدم رسوخ المذاهب الصوفية لديهم ، مما يرجح استجابتهم لداعى الإصلاح الدينى أكثر من غيرهم . وكان بعدها عن متناول أية سلطة مركزية قوية ؛ خاصة بالنسبة للدولة العثمانية ، مما يهيئ فرصة وقوف الحركة الإصلاحية على قدميها قبل أن تمتد إليها قوى تقضى عليها فى مهدها . ومع أن عدم توحدها كانت له سلبياته فإنه كان يحتوى على بعض الإيجابيات . ذلك أن الخلاف بين قبائلها وإماراتها قد يتيح لها ، حين تفشل فى مكان معين ، أن تجد نجاحًا فى مكان آخر غير بعيد عنه ، لأن الخلاف بين صاحب المكان الأول والثانى قد يدفع الأخير إلى الترحيب بمن رفضه الأول . وكان أن أتت الحركة ونجحت على يدى الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

- الشيخ حتى ارتباطه بآل سعود :

كانت أسرة محمد بن عبد الوهاب تدعى آل مشرف ، المنتمية إلى بنى تميم. وكان لبنى تميم دور قيادى فى حاضرة نجد ، ذلك أن أمراء مدن عديدة ، من بينهم آل معمر فى العيينة كانوا من هذه القبيلة . على أن شهرة أسرة الشيخ محمد كانت من الناحية العلمية . والملاحظ أنه قد بدأ يبرز فى هذه الأسرة علماء أجلاء منذ القرن السادس عشر[١٤] . وكان جد الشيخ ، وهو سليمان بن على ، مرجع فى الإفتاء الدينى فى نجد

---

[١١] عبد الله الحاتم ، *المصدر السابق* ، جـ١ ، صـ ١٠٤ – ١٢١ .

[١٢] ابن غنام ، *روضة الأفكار والأفهام لمرتاد جمال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام* ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، جـ١ ، صـ١٠٨ - ١٤٤ .

[١٣] المصدر نفسه ، جـ١ ، صـ٧ – ٨ ؛ ابن بشر ، *المصدر السابق* ، جـ١ ، صـ ١٩ – ٢٠ .

[١٤] ابن بشر ، *المصدر السابق* ، جـ٢ ، صـ ١٩٤ .

وقاضى بلدة العيينة القوية . ثم خلفه ابنه عبد الوهاب فى قضاء البلدة المذكورة . وكثرة العلماء فى هذه الأسرة خلال تلك الفترة ترجح أنها كانت ميسورة الحال من الناحية الاقتصادية مما أتاح لها فرصة تعليم أولادها .

وهكذا ولد محمد بن عبد الوهاب فى أسرة علمية بادية الثراء . وكان مولده فى بلدة العيينة سنة ١١١٥هـ / ١٧٠٣م . وكان لصفاته الذاتية ولمحيطه الأسرى أثر كبير فى سرعة تحصيله العلمى[١٥] . ولقد أدرك وهو لا يزال شابًا ، أن التعليم فى منطقة نجد لم يكن كافيًا لإشباع طموحه ، فسافر إلى الحجاز ودرس فى المدينة المنورة ، وكان لأستاذه الشيخ محمد حياة السندى دور فى مستقبل تفكيره ؛ إذ كان ذلك الشيخ من أشد المحاربن للبدع فى الدين والتعصب للمذاهب . وحين عاد ابن عبد الوهاب إلى بلدته أكب على قراءة كتب ابن تيمية ؛ خاصة فى مجال العقيدة . وبدأ يظهر معارضته لبعض ما كان يجرى حوله ، لكن ذلك كان محدودًا فى مداه وفى تأثيره[١٦] . فرأى من الأجدى له أن يترك نجدًا لمواصلة دراسته خارجها ، فاتجه إلى الأحساء والبصرة. وكانت أطول إقامة له خارج وطنه فى المدينة الأخيرة[١٧] . وهناك درس بعض العلوم على عدد من العلماء ، لكنه لم يكن طالب علم فقط وإنما تحول إلى داعية يصرح بما كان يؤمن به ويجادل عنه[١٨] . على أن جو البصرة ، بظروفه السياسية والدينية ، لم يكن الجو المناسب لدعوة كدعوته . ولذلك تركها وعاد إلى نجد. وكان أبو ، عبد الوهاب ، قد اختلف مع أمير العيينة أثناء غيابه ، وانتقل إلى بلدة حريملاء غير البعيدة عنها ، فالتحق به واستقر لديه . ثم بدأ دعوته فى نجد. وكأية دعوة جديدة على المجتمع كان لها أنصار قليلون ، ومعارضون كثيرون فى بداية الأمر . وكان ممن لا يوافقه على أسلوبه أبوه نفسه ، كما كان أخوه سليمان من أشد المعارضين له فى مبادئه[١٩] . وبعد وفاة أبيه ، سنة ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م ، ازدادت حدة تعبيره لانقدية لما حوله من أوضاع ، لكن أنصاره كانوا فى ازدياد أيضًا . وكان من بين هؤلاء الذين اقتنعوا بصحة ما نادى به أمير العيينة عثمان ابن معمر . فانتقل الشيخ محمد إلى هذه البلدة التى هى مسقط رأسه . وأبدى ذلك الأمير استعداده للتعاون معه فى تطبيق أفكاره . وهنا بدأ الشيخ بتنفيذ ما كان ينادى به وقضى ، بمساعدة عثمان وبقية أنصاره فى إقليم العارض ، على كل الأمور التى كان يرى فيها خطرًا على عقائد جهلة الناس[٢٠] .

---

[١٥] من صفاته الذاتية ما ذكره ابن غنام (المصدر السابق ، جـ١ ، صـ٢٥) من تركه اللعب مع أقرانه من الأطفال ، وحفظه القرآن قبل بلوغه السنة العاشرة من عمره ، وبلوغه الاحتلام قبل إكمال اثنتى عشرة سنة .

[١٦] ابن بشر ، *المصدر السابق* ، جـ١ ، صـ ٢٠ .

[١٧] ابن غنام ، *المصدر السابق* ، جـ١ ، صـ ٢٧ .

[١٨] *المصدر نفسه* ، جـ١ ، صـ ٢٨ .

[١٩] ابن بشر ، *المصدر السابق* ، جـ١ ، صـ ٢١ .

[٢٠] *المصدر نفسه* ، جـ١ ، صـ ٣٠ – ٣١ .

وكان واضحًا منذ البداية أن الشيخ محمدًا يرى أن الإصلاح الدينى لا ينفصل عن الإصلاح السياسى ، وأن الناحية السياسية ستستفيد من الناحية الدينية . ومن هنا كانت عبارته الأولى حين قابل الأمير عثمان : "إنى أرجو إن قمت بنصر لا إله إلا الله أن يظهرك الله تعالى وتملك نجدًا وأعرابها" [٢١].

وفى هذه العبارة ، أيضًا ، توضيح لأمر آخر كان يدور فى ذهن الشيخ ، حينذاك ، وهو أنه كان يرى منطقة نجد ، المفككة سياسيًا وغير الخاضعة للدولة العثمانية ، مجال حركته المستقبلة .

وكان يتزعم المعارضة المحلية لدعوة الشيخ محمد فى تلك المرحلة بعض علماء الدين ، لكن محاولاتهم القضاء عليها فى مهدها فشلت . فاستعانوا بعلماء من خارج المنطقة ، لكن جهود هؤلاء ضدها فشلت أيضًا . ولذلك حاولت المعارضة سلاحًا آخر، فاتجهت لاستخدام قوة السياسيين وحثت الأمراء على محاربة صاحب الدعوة . وكا أنسب زعيم يمكن أن تستفيد منه المعارضة الزعيم الخالدى حاكم الأحساء . وذلك لما كان له من قوة عسكرية ، ولما كان لمنطقته من أهمية اقتصادية لسكان العيينة ، ولما كان يوجد من ارتباط سياسي واقتصادي بين حكام الأحساء وآل معمر[٢٢] .

وكان لاستجابة حاكم الأحساء لنداء المعارضة أثر فى الضغط على عثمان بن معمر ليتخلى عن الشيخ محمد ويطلب منه مغادرة بلدته . فغادر الشيخ تلك البلدة بعد أن دخلت دعوته مرحلة التنفيذ وأصبح له مؤيدون كثيرون فى منطقة العارض كلها .

- ارتباط الشيخ بآل سعود والنتائج الوحدوية لذلك :

وحين تقرر أن يترك الشيخ محمد بلدة العيينة كانت الدرعية المكان المناسب لمقره الجديد . ذلك أن العلاقات بين هذه البلدة وبين حكام الأحساء كانت سيئة[٢٣] . وكان من المتوقع أن يرحبو بمن وقفوا منه موقف عداء لأنهم كانوا خصومًا لهم قبل ذلك . وكان كثير من أعيان البلدة مؤيدين لدعوة الشيخ . ومن هؤلاء إخوة أميرها وابنه عبد العزيز[٢٤] .

وحين قابل الشيخ محمد بن عبد الوهاب الأمير محمد بن سعود فى الدرعية أوضح له ما سبق أن أوضح لعثمان بن معمر من تلازم الإصلاح الدينى والإصلاح السياسي ، كما أوضح لعثمان بن معمر من تلازم الإصلاح الدينى والإصلاح السياسى ، كما أوضح له أن نجدًا ميدان مفتوح أمامه لكى يمارس فيه نشاطه . فكان مما قاله :

---

[٢١] *المصدر نفسه* ، جـ١ ، صـ ٢٢ .

[٢٢] *المصدر نفسه* ، جـ١ ، صـ ٢٣ . ومن دلائل الارتباط السياسى غزو أمراء آل معمر مع حكام الأحساء ، كما أن من دلائل الارتباط الاقتصادى ما ذكره ابن بشر ، هنا ، من وجود مزرعة لعثمان فى الأحساء ، ودفع حاكم تلك المنطقة له مرتبًا سنويًا .

[٢٣] *المصدر نفسه* ، جـ١ ، صـ ٢٣٣ .

[٢٤] ابن غنام ، *المصدر السابق* ، جـ١ ، صـ ٣١ .

"أبشرك بالعز والتمكين والنصر المبين . وهذه كلمة التوحيد التى دعت إليها الرسل كلهم ، فمن تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد . وأنت ترى نجدًا كلها وأقطارها أطبقت على الشرك والجهل والفرقة والاختلاف وقتال بعضهم بعضًا . فأرجو أن تكون إمامًا يجتمع عليه المسلمون وذريتك من بعدك"[٢٥] .

وقد اقتنع محمد بن سعود بذلك وأدرك أبعاده ؛ إذ اشترط على الشيخ محمد مقابل مناصرته له ، أن لا يغادر الدرعية إلى جهة أخرى مستقبلاً [٢٦] . وكانت المبايعة التى تمت بين الشيخ محمد والأمير محمد بن سعود سنة ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م بمثابة إعلان ميلاد دولة جديدة فى المنطقة ، لها هدف معين ومبادئ واضحة .

وما أن استقر الشيخ فى الدرعية حتى بدأ مؤيدوه فى البلدان الأخرى يفدون إليه ، بعضهم يستقر عنده وبعضهم يعود إلى بلاده لينشر الدعوة التى آمن بها . وفى خلال سنتين اتضح أن جهوده قد نجحت نجاحًا كبيرًا . ذلك أن عدد من بلدان العارض قد انضمت إلى الدولة الجديدة طواعية[٢٧] . وكان من بين دوافع قادة بعض هذه البلدان فى الانضمام إليها اقتناعهم بصحة دعوة الشيخ محمد ، التى قامت على أساسها هذه الدولة . لكن منهم من كانت لديه دوافع أخرى ، كالاستعانة بها على المعارضة المحلية فى بلدته .

وهكذا اختل ميزان القوى السياسية والعسكرية بالنسبة للكيانات النجدية لصالح دولة الدرعية الناشئة ، وكان إدراك هذه الدولة لتلك الحقيقة من بين الأسباب التى جعلتها تنتقل إلى مرحلة الصراع المسلح مع خصومها . وكان من الأسباب ، أيضًا، كثرة المهاجرين إلى الدرعية ، مما جعلهم يشكلون عبئًا اقتصاديًا عليها ، من ناحية، ويسهمون فى تشكيل جيش محارب ، من ناحية أخرى . يضاف إلى هذا وذاك ما كان يتعرض له أنصار الدعوة فى بعض البلدان النجدية من ضغط على أيدى الأمراء المعارضين لها .

والواضح من كلام ابن غنام ، المصدر الأول للحركة الوهابية ، أن بدء الصراع المسلح مع الخصوم كان ردًا على عدوان قام به أحد أولئك الخصوم ؛ إذ هاجم دهام بن دواس، أمير الرياض ، بلدة منفوحة التى كانت قد انضمت إلى دولة الدرعية[٢٨] .

وما ورد على لسان الشيخ نفسه فى رسالته إلى العالم العراقى ، عبد الرحمن السويدى، يؤيد كلام ذلك المؤرخ إلى حد ما ، حيث قال :

"وأما القتال فلم نقاتل أحدًا إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة . وهم الذين أتونا فى ديارنا ولا أبقوا ممكنا"[٢٩] .

---

[٢٥] ابن بشر ، *المصدر السابق* ، جـ١ ، صـ ٢٤ .

[٢٦] *المصدر نفسه* ، جـ١ ، صـ ٢٥ ؛ ابن غنام ، *المصدر السابق* ، جـ٢ ، صـ ٣ .

[٢٧] ابن بشر ، *المصدر السابق* ، جـ١ ، صـ ٢٨ ــ ٣٠ .

[٢٨] ابن غنام ، *المصدر السابق* ، جـ٢ ، صـ٦ .

[٢٩] *المصدر نفسه* ، جـ١ ، صـ ١٥٤ .

لكنه من الواضح أيضًا ، أن دولة الدرعية ، بما تهيأ لديها من ظروف ، كانت ستحارب من يعترض انتشار نفوذها فى نجد بالذات على أية حال . وبدأ الصراع المسلح بين دولة الدرعية وبين الإمارات والقبائل المخالفة فى نجد . وكان النصر حليف هذه الدولة فى أغلب الأحيان . ومع أن ما أشير إليه سابقًا من رسوخ النزعة الاستقلالية وتعمق الشعور السلبى تجاه الوحدة لدى النجديين قد أخر وحدة المنطقة سنين طويلة فإن النتيجة الحتمية قد تحققت فى نهاية المطاف . ولم يحل منتصف العقد التاسع من القرن الثامن عشر إلا وقد أصبحت نجد بكاملها وحدة سياسية قوية .

- علاقات الحركة الوهابية بالقوى والمناطق المحيطة بها :

لقد كان هناك احتمالان للتدخل الخارجى ضد دولة الدرعية الناشئة : أحدهما من حكام الأحساء ، والثانى من أشراف الحجاز ، لما كان لهؤلاء وأولئك من نفوذ سابق فى بعض أقاليم نجد .وكان تدخل حكام الأحساء أكثر احتمالاً لأن مركز الدولة الجديدة كان فى إقليم العارض الذى كان النفوذ الخالدى فى بعض بلدانه واضحًا ولأن الأحساء من الناحية الجغرافية أقرب إلى ذلك الإقليم من الحجاز. وقد سبق أن أشير إلى ضغط زعيم بنى خالد على عثمان بن معمر ليتخلى عن مساعدة الشيخ محمد . وكان منتظرًا أن يتدخل ذلك الزعيم للقضاء على دولة الدرعية الجديدة منذ بداية أمرها . لكن من حسن حظ هذه الدولة أن حدث نزاع بين قادة بنى خالد حول الزعامة . وكان من نتائج ذلك النزاع أن توفى زعيم هذه القبيلة، سليمان بن محمد ، طريدًا فى إقليم الخرج بنجد عام ١١٦٦هـ / ١٧٥٢م[٣٠] .

وقد أعطى تأخر التدخل الخالدى فى شؤون نجد خلال تلك الفترة فرصة للدرعية لتقف على قدميها . وحين استقرت الأمور فى الأحساء لزعيم خالدى آخر، عام ١١٧٢هـ / ١٧٥٨م ، كانت دولة الدرعية قد أرست قواعدها فى المنطقة .

ومنذ العام المذكور أخيرًا بدأ التدخل العسكرى لزعماء بنى خالد ، حكام الأحساء ، ضد الدولة الجديدة فى نجد . لكن من الملاحظ أن ذلك التدخل لم يكن مستمرًا ، وإنما كان يحدث على فترات يفصل بين بعضها حوالى عشر سنين أحيانًا. وقد أبدت دولة نجد الجديدة صمودًا قويًا ضد كل الهجمات الخالدية عليها . وكان محتمًا أن يتغير ميزان القوة العسكرية بين دولة الدرعية وزعماء بنى خالد مع استمرار صمود تلك الدولة ونجاحها . ولم تأت سنة ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م إلا وقد تبدل موقف الدرعية من الدفاع إلى الهجوم . ولعل مما ساعدها على ذلك ، إضافة إلى توحيدها لنجد ، أن الخلافات الداخلية بين زعماء بنى خالد عادت من جديد . وفى هذه المرة لم يجد الزعيم الخالدى ، الذى ثار عليه أقاربه ، مكانًا يلجأ إليه أنسب من الدرعية ذاتها[٣١] .

---

[٣٠] ابن بشر ، *المصدر السابق* ، جـ١ ، صـ ٤٣ .

[٣١] ابن غنام ، *المصدر السابق* ، جـ٢ ، صـ ١٢٤ – ١٢٥ .

وهكذا بدأت جيوش الدرعية تغزو منطقة الأحساء. ولم ينته عام ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م إلا وقد دخلت هذه المنطقة المهمة تحت حكم قادة الدرعية[٣٢] .

أما بالنسبة لعلاقة دولة الدرعية بأشراف الحجاز فكانت مختلفة نوعًا ما عن علاقتها بزعماء بنى خالد . لقد عارض أولئك الأشراف الحركة الوهابية منذ بداية ظهورها ، لكن معارضتهم اقتصرت على الناحية المعنوية ولم يتجاوزها إلى أى إجراء مادى . فقد أفتى علماء مكة بانحراف محمد بن عبد الوهاب عن الدين الصحيح ، ومنعوا أتباعه من الحج سنين طويلة ، لكن أشراف الحجاز لم يقوموا بأى غزو عسكرى لنجد إلا بعد مرور أكثر من أربعين سنة على قيام دولة الدرعية الجديدة .

والأسباب التى دعت إلى تأجيل تدخلهم العسكرى ليست واضحة . لكن يبدو أنهم كانوا يظنون بأن المعارضة المحلية فى نجد ، بمساعدة بنى خالد ، ستكفيهم مهمة القضاء على الحركة الوهابية . وحين انهارت المعارضة النجدية ، وأوشكت الأحساء ذاتها على الدخول تحت حكم الدرعية ، أدرك أشراف الحجاز أنه لابد من التدخل العسكرى لئلا يمتد نفوذ الدولة النجدية الجديدة إلى بلادهم .

وكان أن بدأوا غزوهم لها عام ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م [٣٣] . لكن فرص نجاح هؤلاء الأشراف فى تحقيق أى انتصار كانت غير واردة حينذاك . فكان أن فشلوا فى هجومهم على نجد ، ثم فشلوا فى دفاعهم عن الحجاز . ولعل مما زاد موقفهم حرجًا انضمام منطقة عسير إلى دولة الدرعية ، حيث أصبحت الحجاز محاطة من أكثر جهاتها بمناطق تابعة لهذه الدولة . وفى خلال سنتى ١٢١٩هـ و ١٢٢٠هـ / ١٨٠٤م و ١٨٠٥م انهارت مقاومة الأشراف وأصبحت الحجاز جزءًا من الدولة الوحدوية الجديدة .

ولم يقف نجاح دولة الدرعية عند هذا الحد ، وإنما امتد إلى مناطق أخرى من الجزيرة العربية وأطرافها ، فشمل أجزاء من اليمن وأجزاء من عمان وبلدان الخليج العربى الأخرى، من بينها قطر . بل إن تلك الدولة نجحت فى مد نوع من النفوذ لها على قبائل عربية فى كل من العراق وسوريا وكان من بين مظاهر ذلك النفوذ دفع بعض هذه القبائل الزكاة إليها[٣٤] .

- موقف الدولة العثمانية من الحركة الوهابية :

ولقد علمت الدولة العثمانية بالحركة الوهابية منذ بدايتها فلم تقم بأى إجراء عملى ضدها سنين طويلة . وحين استولت هذه الحركة على الأحساء وأصبحت حدودها متاخمة للعراق ، التى كانت ولاية من الولايات العثمانية ، وأصبحت تهدد الحجاز ، التابعة لها من الناحية الرسمية والمهمة لديها من الناحية المعنوية ، تحركت للقضاء

---

[٣٢] *المصدر نفسه* ، جـ٢ ، صـ ١٦٧ – ١٦٨ ؛ ابن بشر ، *المصدر السابق* ، جـ١ ، صـ ١٣٠ – ١٣١ .

[٣٣] ابن غنام ، *المصدر السابق* ، جـ٢ ، صـ ١٤٥ – ١٤٨ .

[٣٤] ابن بشر ، *المصدر السابق* ، جـ١ ، صـ ٢٣٢ .

عليها . فأرسلت حملات من العراق ضدها . لكن الفشل كان مصير هذه الحملات وحين دخلت الحجاز تحت نفوذ الحركة الوهابية ازداد تصميم الدولة العثمانية على القضاء عليها . وكان ما هو معروف لدى الجميع من نجاح الحملة التى قام بها محمد على ، حاكم مصر ، ضدها ، والقضاء على دولتها عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م . وبذلك انتهت أول تجربة وحدوية فى تاريخ جزيرة العرب الحديث .

على أن القضاء على الحركة الوهابية عسكريًا لم يقض على مبادئها ، فظلت حية فى نفوس أتباعها ؛ خاصة فى نجد ، حتى قامت لها دولة جديدة تمثلت فيما سمى بالدولة السعودية الثانية . وقد ضمت هذه الدولة نجدًا والأحساء وأجزاء أخرى من مناطق الخليج العربى . ثم ضعفت نتيجة الانقسامات الداخلية فى قيادتها ، وحلت محلها فى نجد إمارة آل رشيد . ومنذ بداية هذا القرن بدأ عبد العزيز بن سعود جهوده لتكوين دولة جديدة . ونجح أخيرًا فى توحيد أجزاء واسعة من جزيرة العرب مكونًا بذلك المملكة العربية السعودية الحاضرة[٣٥] .

[٣٥] ابن بشر ، *المصدر السابق* ، جـ١ ، صـ ٢٣٢ .

قائمة بأسماء المراجع العربية والأجنبية :

- ابن غنام ،
روضة الأفكار والأفهام لمرتاد جمال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

- عبد الله الحاتم ،
خيار ما يلتقط من الشعر النبط ، الطبعة الثانية ، دمشق ، ١٩٦٧ .

- عثمان بن بشر ،
عنوان المجد فى تاريخ نجد ، الطبعة الثانية من قبل وزارة المعارف السعودية ، ١٩٧١ .

- محمد الفاخرى ،
الأخبار النجدية ، تحقيق عبد الله الشبل ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٩٨٠ .

- Abu Hakima ,
History of Eastern Arabia (1750 – 1800) , Beirut , 1965 .

- Burckhardt ,
Notes on the Bedouins and Wahabys , London , 1831 .

الأشكال

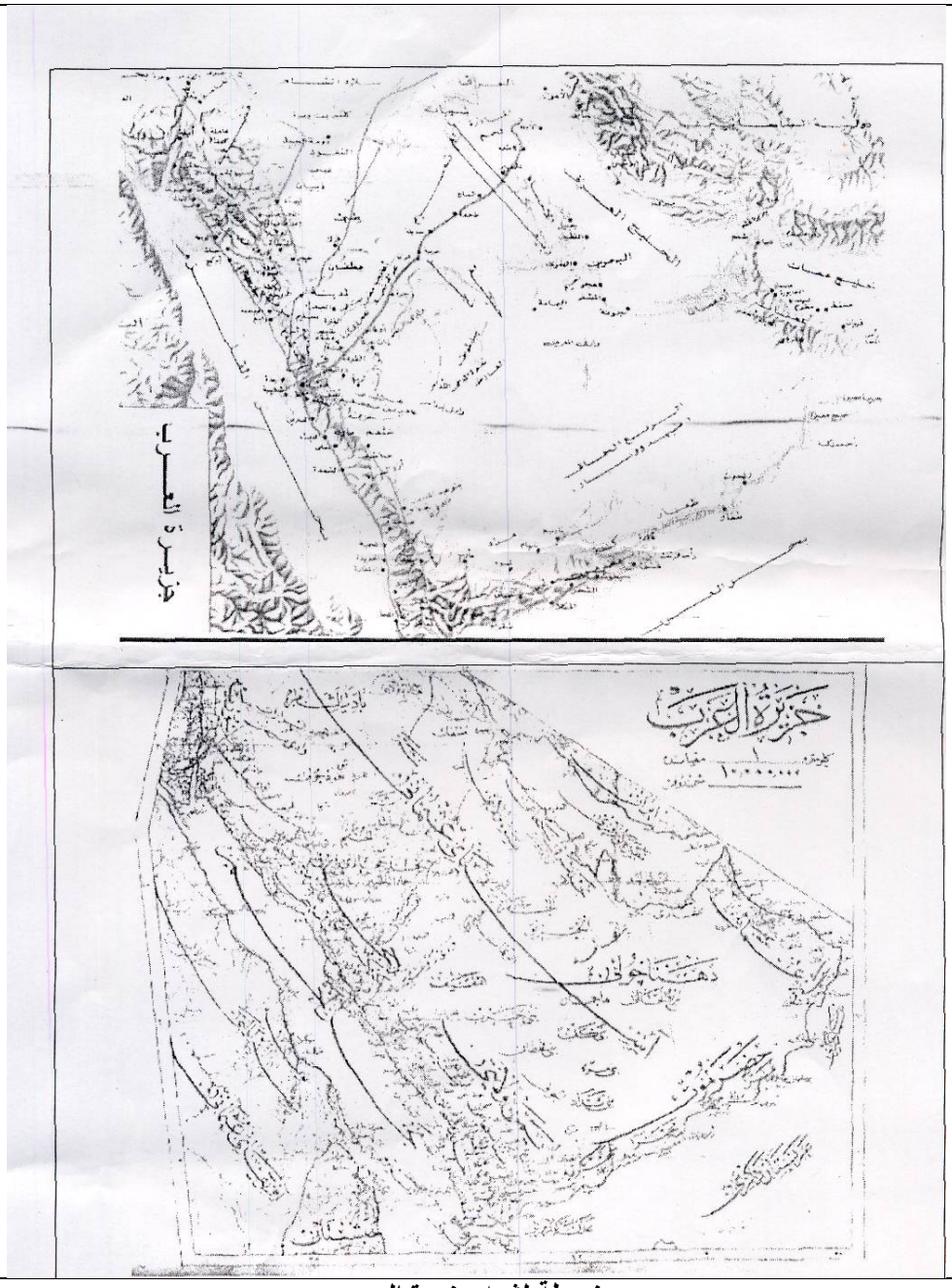

خريطة لشبه جزيرة العرب

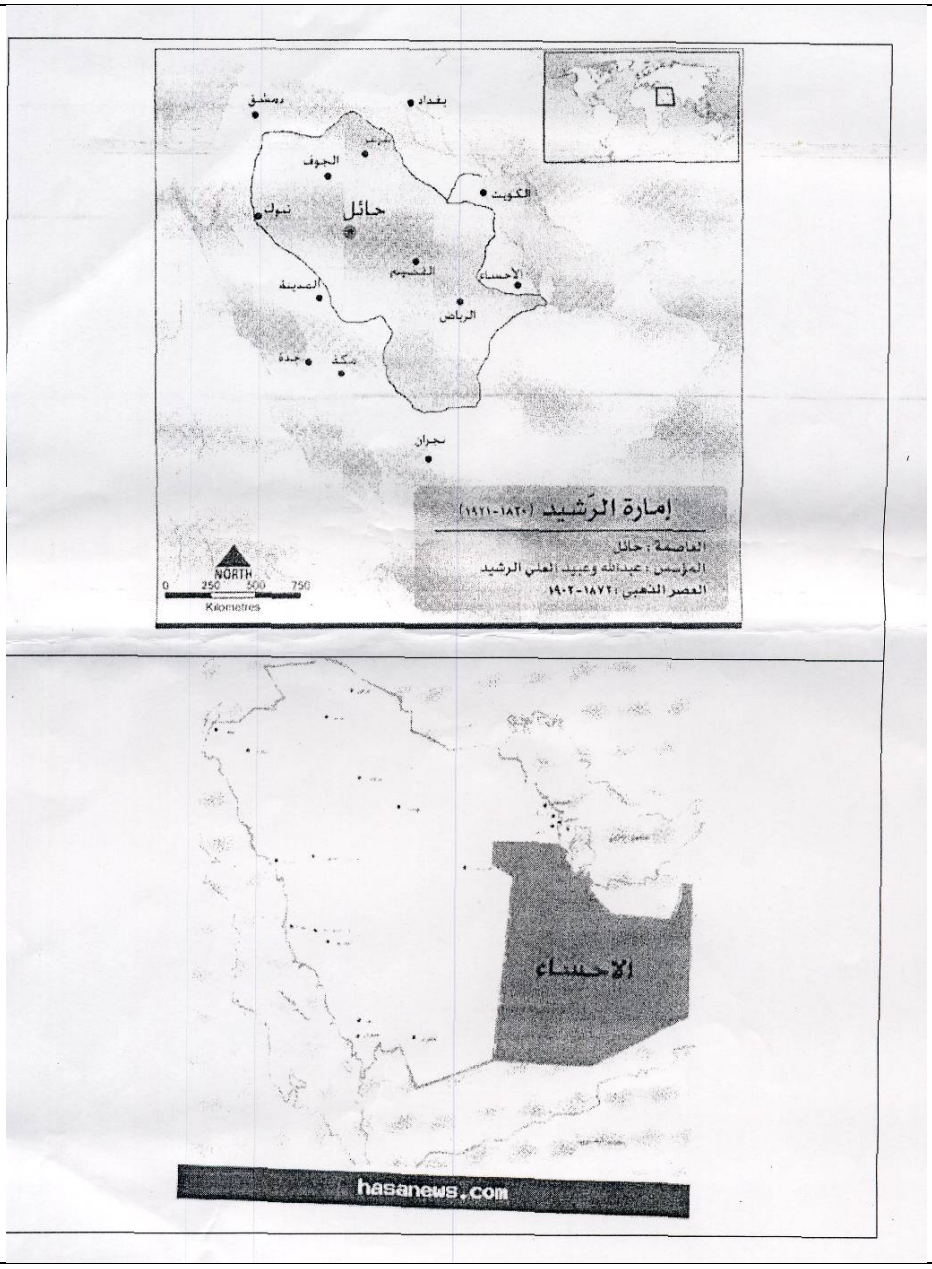

خريطة تبين موقع إمارة رشيد ومنطقة الأحساء

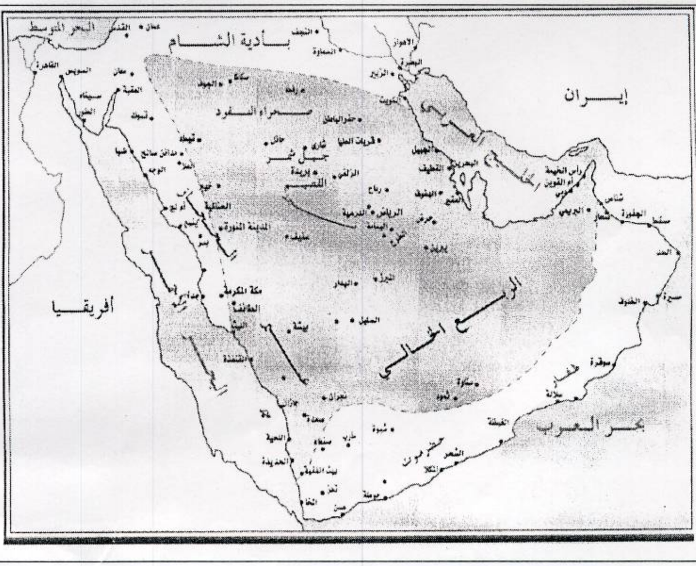

خريطة توضح المناطق والمدن الرئيسية فى شبه الجزيرة العربية

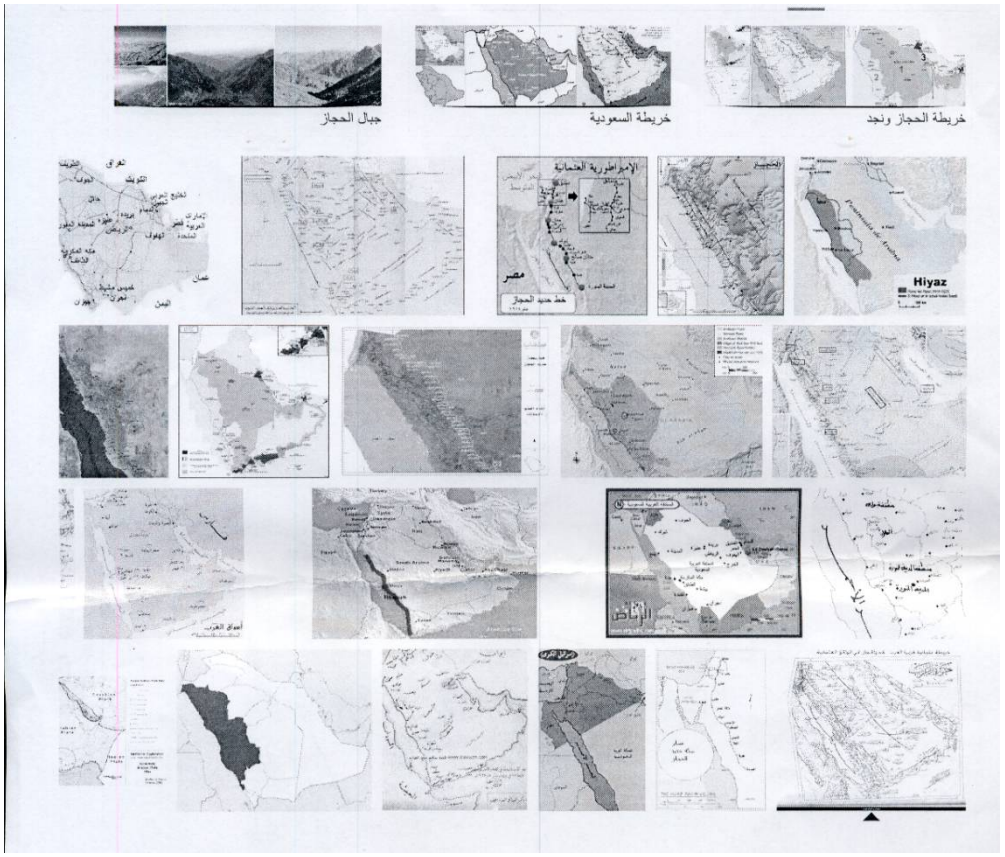

خرائط متنوعة توضح شبه الجزيرة العربية

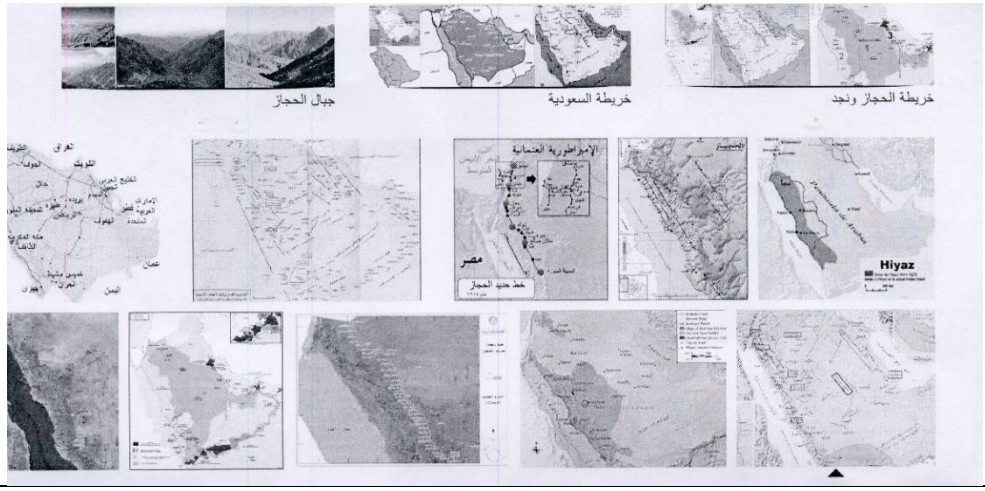

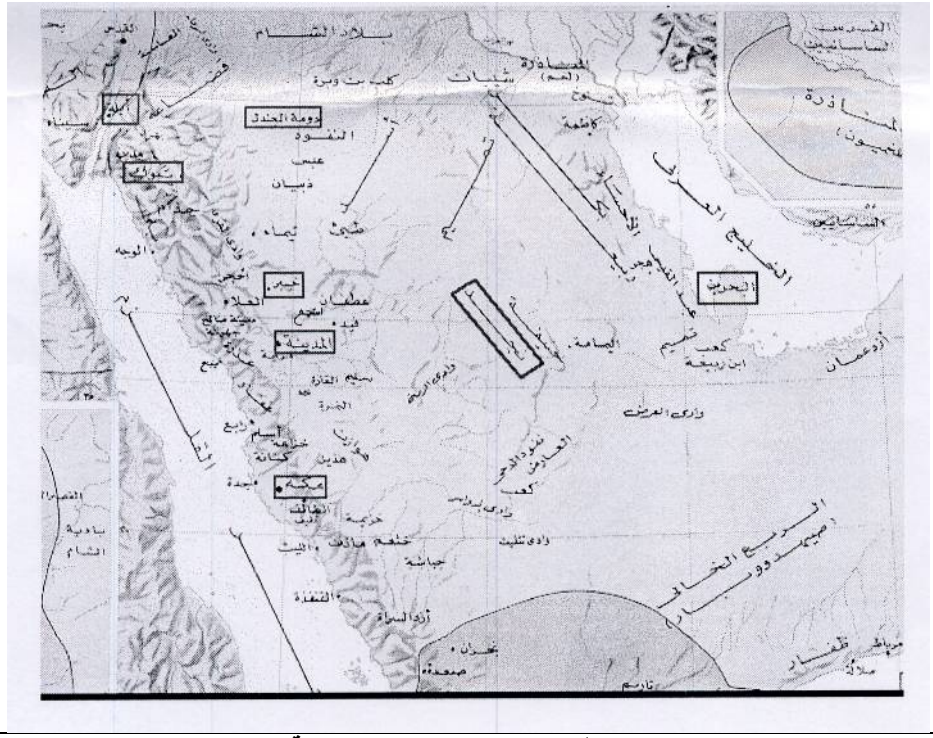

خرائط توضح شبه الجزيرة العربية